الخمريّـــات
في شعر مصر الفاطميَّة ٣٥٨ – ٤٢٧هـ

أ . م . د رحيم خريبط الساعدي
جامعة الكوفة – كليَّة الآداب
قسم اللغة العربية

م . محمد حسين عبد الله المهداوي
جامعة كربلاء – كليَّة التربية
قسم اللغة العربية

==========

مدخل :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين أبي القاسم محمد وآله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الغر المنتجبين ...

أما بعد ،

فقد ازدهر الأدبُ في مِصْرَ الفاطميَّةِ ، وبَلَغَ الشِّعرُ فيها شأواً عظيماً ؛ إذ تهيَّأت لهذه الدولة مقوِّمات الإبداع ، والرقيِّ الأدبيَّين ؛ لما خصَّها الله من طبيعة ساحرة ، وجمالٍ أخّاذ ، وخيالٍ خصب ، ونعمةٍ وافرةٍ ، عزَّزه انفتاح أهلِها على المجتمعات الأخرى ، وتلاقحهم فكريّاً ، وثقافيّاً ، فكانت مصر إبّان الحقبة (٣٥٨ – ٤٢٧هـ) مقصداً لكثيرٍ من الشعراء ، والعلماء ؛ الذين وفدوا عليها ؛ من المشرق ، والمغرب ، فأسهمَ هؤلاء – جميعاً – في تشكيل الطابع الخاص لهذه الدولة ؛ الذي جمع بين السياسة ، والدين ؛ من جهة ، واللهو ، والجمال ، وحب الطبيعة ؛ من جهة أخرى .

يعنى هذا البحث بدراسة فن الخمريات عند شعراء هذه الحقبة ؛ إذ كانت الخمرة تشغل ديواناً كبيراً ، وتمثّل ظاهرة مميَّزة عند الشعراء .

Summary :

Literature flourished in Fatimid Egypt where poetry occupied a prominent status because the state at the time had the grounds for creativity and refinement. God conferred on it a magical nature, enthralling beauty, fertile imagination, and abundant grace which was consolidated by the openness of its people to other societies let alone the warmth with which the Fatimid Caliphs welcomed their guests. Egypt was an object of veneration during (358-427 A.H.) for poets and scientists who came from the East and the West and who contributed to the formation of the state's special identity which united politics, religion on the one hand and pastime, beauty, and love of nature on the other. Hence, the interest in the Fatimid literature and poetry in particular emerged and the tackling of poetic themes and the artistic features . This paper deals with the pride in the Fatimid poetry during (358-427 A.H.) .

الخمريّات :

الخمريات من الموضوعات الشعرية المطوَّرةَ ، وقد عرفها الأدب العربي منذ عصر ما قبل الإسلام ، وبدت « بسيطة عند الجاهليين ؛ تحاكي بساطة حياتهم »[١] ، ونظم فيها الشعراء العرب قبل الإسلام ، وثمَّة نماذج تدل على أنَّ هؤلاء الشعراء عاقروا الخمرة ، وفخروا بشربها ، مثلما فخروا بالشجاعة ، والصبر ، ولعلَّ الخمرة كانت بعض مضامين المديح ، والرثاء ، والوصف عندهم ، ومن ثَمَّ فقد راح الشعراء يصفونها ، ويصفون أدواتها ، فتحدَّثوا عن صفائها ، وقدمها ، ورائحتها ، وحبها[٢] ، بيد أنَّ هذه النماذج لا تعدو أن تكون في قصائد قليلة ؛ لا ترقى إلى أن تشكِّلَ موضوعاً مستقلاً ؛ إذ « لم يكن موضوعها مقصوداً لذاته »[٣] .

ولمّا جاء الإسلام أمر بتحريم الخمرة ، وأقام الحدَّ على شاربيها ، وتذكر لنا كتب الأدب ، والتأريخ أنَّ أبا محجن الثقفي كان يتعاطى الخمرة ، ويذكرها في شعره ، ولذلك لم يسلم من الحدِّ مرّات عدَّة[٤] ، على أنَّ العصر الأموي قد شهد شعراء تعاطوا الخمرة ، ووصفوا كؤوسها مثل : الأخطل[٥] ، والوليد بن يزيد[٦] ، وغيرهما ، وصار الشعراء في هذا العصر يتحدثون عن فعل الخمرة في النفوس ، ويتجافون عن بساطة البدو ، وعن صور البادية[٧] .

بيد أنَّ التحولات الحضارية الكبيرة التي شهدها العصر العباسي ، وانفتاح المجتمع العربي على المجتمعات الأخرى ، و« شيوع الترف في المجتمع الإسلامي ، وتدفق الثروة عليه »[٨] ؛ قاد إلى أن يصبح شعر الخمرة فناً أدبياً قائماً بنفسه ؛ إذ توسَّعت مجالس الخمرة ، وشاع شربها ، وكثرت أنديتها ، وحاناتها ، وزاد الإقبال عليها ، وعمد الشعراء إلى وصفها بصورة لم تعهد من قبل[٩] .

وشهدت مصر في عهد الفاطميين « تطوراً ملحوظاً عن ذي قبل ، فكثر اللهو ، والمجون ؛ بتأثير هذا التطور الذي ساد الحياة الأدبية ، وقد كان للثراء العاجل ، ولمظاهر الجاه أكبر الأثر في توجيه الحياة تلك الوجهة ولهذا جاء شعر شعراء مصر أصدق مرآة لتلك الحياة العابثة الثائرة ، فكان فيّاضاً بوصف مجالس الشرب ، واللهو ، ... والدعوات للاستمتاع بلحظات يختلسونها في اللهو ، والشراب ، والمجون ضمن الحانات ، وأماكن اللهو ، وانتهاباً للذات ، وعبثاً في مجال الحب ، والخمرة ، ... »[١٠] .

ومن يطَّلع على شعر الخمرة في مصر الفاطميَّة إبّان هذه الحقبة ؛ يجد أنَّ كثيراً ممن نظم مثل هذا اللون من الشعر هم من الأعيان ، والعلماء ، والقضاة ، ولعلَّ كثيراً من هؤلاء نظموه على سبيل التقليد والمحاكاة ، في حين نجد شعراء آخرين نظموه عن ممارسة حقيقية ؛ نظماً ، وشرباً ، وتهتكاً[١١] ، وكانت الخمرة مرافقة لهم في حياتهم ، حتى انغمسوا في تعاطيها ، وأثنوا على شاربيها .

لقد أدمن بعض الشعراء شرب الخمرة ، ومدحوا شاربيها ، فها هو صالح بن مؤنس يدمن شربها ، ويمدح من يشاركه فيها ، فأوقاته لا تحلو إلا بها ، وأيامه لا تحسن إلا بتعاطيها ، فقال : (الطويل)

سَأُدْمِنُ شُرْبَ الرَّاحِ ما دُمْتُ باقِياً وأَمْدَحُ مِنْ شُرّابِها كُلَّ مُدْمِنِ

فَمَا تَكْمُلُ الأَوْقاتُ إلاّ بِقَهْوةٍ وَلا تَحْسُنُ الأَيّامُ إلاّ لِمُحْسِنِ[١٢]

ويعجّل أبو محمد القاسم بن الرسي في مبادرة اللذات ؛ بشرب الخمر ، قبل أن يدركه الموت ، لعلَّه يستمتع بها قبل فراق أحبائه ، وأصدقائه ، فقال : (الوافر)

فهَاتِ الكأسَ مُتْرَعَةً وَدَعْنِي أبادِرُ لَذَّتي قَبْلَ ارْتِحَالي

فَكُلُّ جَمَاعَةٍ لا شَكَّ يَوْمَاً يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ صَرْفُ اللَّيَالِي[١٣]

علـى أنَّ هنـاك مـن الشـعراء مـن اعتـرف بحرمـة شـرب الخمـر ، بيـد أنَّـه لـم يسـتطع أن يمنـع نفسـه مـن تعاطيها ، والاستمتاع بلذتها ، فقال أبو القاسم المغربي في هذا المعنى : (مخلَّع البسيط)

كَأْسُ مُدَامٍ صَدَدْتُ عَنْهَـا لله وَالنَّفسُ تَشْتَهِيهـا
قال عَلِيٌّ وكـانَ عَـدْلاً قَدْ طُبِخَتْ فَقُلْتُ اسْقنيهـا
فالآنَ إذا عُذِّبْتُ قلِيْـلاً فَدَتْ مِنَ النَّـارِ شارِبيهـا[١٤]

ويبدو أنَّ هذا الإصرار على شرب الخمر نابعٌ من ظنِّ هؤلاء أنَّ الخمرة دواءٌ لداء الهموم ، وهي الطبيب لكلِّ مهموم ؛ ضاقت به الدنيا ، واستولى الهمُّ على نفسه ، وما من وسيلة للترويح عنها ، وطرد الهموم منها إلاّ بشربها ، فها هو تميم بن المعز لدين الله يذكر هذا المعنى ، فيقول : (الخفيف)

مَا تَحَمَّلْتُ ذِلَّـةً بَلْ تَحَمَّلْـ تُ إلى أنْ يُتِمَّ ربِّي القَضَـاءَ
فاصْرِفا الحَرْبَ عَنْ لِئامِ الأعـادي وَدَعَانـي أنازِلُ الصَّهْبَـاءَ
قَهْوةٌ تَهْزِمُ الهُمـومَ إذا مَـا نَازَلَتْهَـا وتُطْرِبُ النُّدَمَـاءَ[١٥]

ويؤكد ابن وكيع أنَّ الخمرة طبيبٌ لداء الهموم ، فقال : (مجزوء الرمل)

ما سِوَى الرَّاحِ لِدَاءِ الْـ هَمِّ عِنْدِي مِنْ طَبِيـبِ[١٦]

والهمُّ – عنده – لا يجرؤ على التصدي لها ، والشخوص بوجهها ، فما إن يدبُّ أثرها على النفوس ؛ حتّى تولي جيوش الهمِّ هاربة ، فقال : (مخلَّع البسيط)

اشْرَبْ فَقَدْ طابَتِ العُقَـارُ وابْتَسَمَ الوَرْدُ والبَهـارُ
مِنْ قَهْوَةٍ مَا انْبَرَتْ لِهَـمٍّ إلاّ وَوَلّـى لَهَا انْشِمَـارُ
لَهَا جيوشٌ مِنَ المَلاهـي لِلْهمِّ قدّامُهـا فِرارُ[١٧]

وتبعاً لهذا الظن ؛ تعرَّض الشعراء إلى إبراز أثر الخمرة ، وما تحدثه في نفس شاربها ، فها هي عند علي بن حبيب الراني تجمّل لشاربها سبل المعاصي ، فما عاد يدرك سبيل الإيمان ، ويميزه من غيره ، فقال : (الخفيف)

سَلْسَبيلٌ تُرِيكَ سُبْلَ المَعَاصِي كَسَبيلِ الصَّلاحِ وَالإيمـانِ[١٨]

ويصف ابن وكيع أثرها في ذهاب العقل ، وتحكّمها في ذهن شاربها ، وعقله ، فقال : (الكامل)

أخْفَى دَبيباً في مفاصِلِ شُرْبِهـا وأعْدَقَ[١٩] **أَلْطَافاً مِنَ المِقْـدارِ**
أحْكَامُها فِي العَقْلِ إنْ هِيَ حُكِّمتْ أحْكَامُ صَرْفِ الدَّهْرِ في الأحْرارِ
يَرْضَى عَلى الأقْدارِ شاربُهَا الَّذي ما زالَ ذا سُخْطٍ على الأقْدَارِ[٢٠]

وهي عند إبراهيم بن غانم بن عبدون تضلّ شاربها ، فما إن يهتدي لسبيل ؛ أرته أخرى ، وهو في ذلك يؤكد معنى سابقيه في أثرها على فقدان التركيز ، وتشتت الانتباه ، فقال : (المتقارب)

إذا ما اهْتَدى لِطَرِيـقٍ أرَتْـ ـهُ أخْرَى فَعَادَ وَقَدْ ضَلَّـها[٢١]

إنَّ شعر الخمرة في هذه الحقبة من عمر الدولة الفاطميَّة يمكن أن يشكِّلَ ديواناً كبيراً ؛ إذ وصف الشعراء

الخمرة ، وما يتصل بها من سقاة ، وندمان ، وكؤوس ، وحانات ، ومجالس ، وقد جعلها بعضهم مفتتحاً لقصائدهم ، واتخذها آخرون موضوعاً رئيساً في شعرهم ، ومن يتأمَّل ذلك الشعر ؛ يجد أنَّ أصحابه لم يتركوا صغيرة ، ولا كبيرة في موضوع الخمرة إلاّ تناولوه ، حتى إنَّ بعضهم اجتهد في تحديد الأوقات التي يحلو فيها الشراب ، وهو بهذا يعكس وجهة نظره في هذا التحديد ، فشاعر مثل ابن وكيع التنيسي يحدِّدُ وجهته في الشرب على أساس الفصول الأربعة ، فالصيف بحرارته العالية ، وقيظه الشديد لا يعين على الشرب ؛ لأنَّه يورث الصداع ، فإذا حاول الإنسان أن يشرب فيه أصيب بالتهويس ، والصداع[٢٢] ، ولم يكن فصل الخريف أحسن حالاً من سابقه ، فهو بتقلباته الجويَّة يمزج الصفو بالكدر ، ولا بدَّ للشارب من أن يحذر من الشرب فيه[٢٣] ، أما الشتاء ؛ فإنه ببرودته الشديدة ؛ يجعل الشارب فيه يقاسي (خطباً صعباً) ، فهو يحتاج إلى أن توقدَ النيران ، والنار ترسل شررها نحو الأحداق ، وتلطخ الثياب ، وتجعل أبيضها ملطخاً بالسواد[٢٤]... ، على أنَّ فصل الربيع من أحسن الأوقات – عنده – للشرب ، ولعلَّ الطبيعة الساحرة ، وائتلاق الربيع بالزهر ، والنوار ، ما يعين الشارب على احتساء الخمرة ، والاستمتاع بمذاقها ، فقال : (الوافر)

جَاءَ إلَيْنَا زَمَنُ الرَّبيعِ فَجَاءَ فَصْلاً أحْسَنَ الجَميعِ

.....

فانْهَضْ إلى اللَّهْوِ وَلا تَخَلَّفْ فَلَسْتَ في ذلِك بالمُعَنَّفْ

واشْرَبْ عُقَاراً طالَ فينا كَوْنُها يَصْفَرُّ مِنْ خَوْفِ المِزاجِ لَوْنُها[٢٥]

وعنى الشعراء بأوقات الشرب ؛ ما بين صبوح[٢٦] وغبوق[٢٧] ، فتميم بن المعز لدين الله – وإنْ حلا الشرب عنده في الأوقاتِ جميعاً – يؤثر الصبوح ؛ لأنه يقترن عنده بنور الثنايا ، والخدود المحمَّرة ، فقال (السريع)

اشْرَبْ على ضَوْءِ نَهَارٍ بدَا فَمَزَّقَ اللَّيْلَ وأبْدَى السُّعُودْ

كَأنَّهُ في نُورِهِ لابِسٌ نَوْرَ الثَّنَايا واحْمِرَارِ الخُدودْ[٢٨]

ويدعو ابن وكيع إلى الاصطباح بالخمرة الصفراء الصافية ، فقال : (البسيط)

فَقُمْ بِنَا نَصْطَبِحْ صَفْراء صافِيَةً كَالنَّارِ لكِنَّها نَارٌ بِلا لَهَبِ[٢٩]

ويحثُّ الخطى على استباق اللهو ، والملذات على بكرة الصباح ؛ حين تبدأ الأطيار بالتغريد مبشرة بالفجر الطالع ، وينبه الناعسين من رقادهم ، فقال : (الرمل)

غرَّدَ الطَّيْرُ فنبِّهْ مَنْ نعَسْ وأدِرْ كأْسَكَ فالعَيْشُ خُلَسْ[٣٠]

سُلَّ سَيْفُ الفَجْرِ مِنْ غَمْدِ الدُّجَى وَتَعَرَّى الصُّبْحُ مِنْ قُمْصِ الغَلَسْ

وبَدَا فِي حُلَلٍ فِضِيَّةٍ نالَها مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ دَنَسْ

فاسْقِنِي مِنْ قَهْوةٍ مِسْكِيَّةٍ في رياضٍ عَنْبريّاتِ النَّفَسْ[٣١]

ولم يبالِ الشريف العقيلي بصبوحٍ أو غبوق ، فالشرب – عنده – يحلو في الأوقاتِ جميعاً ، فها هو يقول : (الرجز)

باكِرْ عُقَاراً كَدَمِ الذَّبيــحِ فَيَوْمُنا يَوْمٌ خَفيــفُ الرُّوحِ
يَصْلُحُ لِلْغَبُـوقِ والصَّبُوحِ لا تُفْسِدِ الجَميـلَ بِالقَبيـحِ[٣٢]

وعنى الشعراء بلون الخمرة ، وما يتركه من أثر معنوي على نفوس شاربيها ، فالداكنة منها « زنجيَّة الآباء »[٣٣] ، والحمراء منها « ذوبٌ من العقيقِ »[٣٤] ، و « كالوردِ حمرةً »[٣٥] ، وهي « كدمِ الذبيحِ »[٣٦] ، والصفراء منها « مزعفرة القميصِ »[٣٧] ، و « ذوبٌ من الذهبِ الإبريزِ »[٣٨] ، و « صفراء من نجل الكرومِ »[٣٩]، وقد أفاضت على المجلسِ « ذوائبَ صفراً »[٤٠] ، والورديَّة منها كأنَّها تعصر من خدِّ ساقٍ أحور[٤١] .

ويتصل بالألوان عنايتهم بضياء الخمرة وما ترسله من أشعة ، فهي نارٌ بلا لهبٍ[٤٢] ، وتحكي الضرام المشتعل في الليل[٤٣] ، وهي « كشعاعِ الشمسِ »[٤٤] ؛ « تأتي شعاعاً على الأكؤسِ »[٤٥] ، وغيرها من المعاني التي شاع استعمالها عند شعراء هذه الحقبة .

ويبدو أنَّ تنوّع ألوان الخمرة جاء على مقدار ما يضاف إليها من الماء ، والمدَّة الزمنيَّة التي تعتَّق بها ، فضلاً عن المادة الأساسيَّة التي صنعت منها ، وقد ورد مزج الخمرة بالماء في شعر الشعراء ، وكان لذلك المزج أثر خاص في نفس ابن وكيع التنيسي ؛ الذي وصف ذلك المزج ، والحبب المتشكل فوقها كأنَّه تاجٌ على رأسها ، فقال : (البسيط)

عَروسُ كَرْمٍ أتَتْ تَخْتَالُ في حُلَلٍ صُفْرٍ عَلَى رأسِها تاجٌ مِنَ الحَبَبِ[٤٦]

ويشبهها حين تمزج بالماء – وهي حمراء داكنة – والحبب أبيضُ ناصعٌ فوق طوقها بفرسٍ كميتٍ عليها لجامٌ من فضَّة ، فقال : (مخلَّع البسيط)

طَوَّقَها المَاءُ سِمْطَ درٍّ لَيْسَ لمنْثُورِهِ نِظــامُ
كأنَّها تَحْتَهُ كُمَيْتٌ عَلَيْهِ مِنْ فِضَّة لِجَامُ[٤٧]

ويشبه الشريف العقيلي صفرة الخمرة حين تمزج بالماء بخدِّ صبٍّ داهمه الحزن ، والكرب فترك آثاراً شاحبةً على وجهه ، فقال : (البسيط)

كأنَّمَا الرَّاحُ بَعْدَ المَزْجِ عَسْجَدَةٌ أوْ خَدُّ صَبٍّ أسيرٍ في يَدِ الكُرَبِ[٤٨]

والخمر المعتَّقة لها شرّابها ؛ الذين ينتعشون بشربها ، ويلذّون بطعمها ، فها هي تنفي الهمَّ عن أبي الرقعمق الأنطاكي ، وتمحو الكرب من قلبه ، فقال : (المجتث)

إنّي لَيَرْتاحُ قَلْبي إلى اصْطِحَابِ المثانـي
بِحَيْث تَنْفِي هُمُومِي مُعتّقاتُ الدَّنَـانِ[٤٩]

وتطرب نفسه للغناء ، ويتوق إلى الخمرة المعتَّقة التي يحلو معها الطرب والنشوان ، فقال : (الوافر)

وما أنا والأحاديثُ اللَّوَاتي تَزْهَدُ في المَثالث والمَثاني
ألا طَرِبَتْ إلى النَّشْوَاتِ نَفْسِي وَتُقْتُ إلى مُعَتَّقَةِ الدَّنانِ[٥٠]

ويصف ابن وكيع تلك الخمرة التي تقادم عهدها ؛ فبدت كأنَّها قنديلٌ في سواد الليل البهيم ، فقال : (البسيط)

مِنْ قَهْوةٍ عُتِّقَتْ في دنِّها حِقَباً كأنَّها في سَوَاد اللَّيْلِ قِنْدِيلُ[٥١]

ووصف الشعراء مجالس الخمرة ، وحاناتها ، وما يدور فيها من سقاة وندمان ، وكان تميم بن المعز لدين الله يرى في هذه المجالس ملكاً عظيماً ؛ هو ألذ عنده من ملك كسرى ، وافتضاض كواعب الأبكار ، فقال : (الخفيف)

ساعَةٌ مِنْ جَنَى حديثِك مَا بَيـْ نَ سَمَاعِ الغِنا وشُرْبِ العُقَارِ
وَمُعاطاتُك الكؤوسَ عَلَى رَوْ ضِ المَعاني وَرِقَّةِ الأفْكَارِ
هُوَ عِنْدِي ألذُّ مِنْ مُلْكِ كِسْرى وافتضاضِ الكَوَاعبِ الأبْكَارِ[٥٢]

ويعرِّج ابن وكيع التنيسي على وصف ما يدور في هذه المجالس ، فالندمان ، والشرّاب هم فتية لم يجعلوا طاعتهم إلاّ للهو ، فقال : (البسيط)

فِي فِتْيَةٍ جَعَلوا لِلَّهو طاعَتُهُمْ فَمَا لَهُمْ عَنْ طَرِيقِ اللَّهْوِ مَعْدولُ[٥٣]

وحُضّار المجلس عند الحسن بن محمَّد السهواجي هم من السادة الكرام ، الذين جمعوا مقاصد العلا ، والفخار ، فقال : (البسيط)

وَقَهْوَةٍ كشُعاعِ الشَّمْسِ صافيةٌ شَرِبْتُهَا مَعَ شُرْبٍ سادَةٍ كُرَمَا
إذا ثَنَوْا أرْؤُسَ الفُرْسَانِ في رَهَجٍ حازوا الفَخَارَ وأجْرَوْا بالسُّيوفِ دَمَا
إذا رأيْتَهُمْ أيْقَنْتَ أنَّهُمُ نُجُومُ فَخَارٍ لا نُجُومُ سَمَا[٥٤]

ولمّا كانت هذه المجالس لا تحلو إلاّ بالغناء والطرب ، فقد وصف الشعراء المغنين ، والمطربين ، فالمغني عند ابن وكيع حاذق ، يعرف تساوق الغناء مع رنّات المزامير ، فلا يتخلَّف عنها لحظة ، وهو شديد الفطنة يحرك بغنائه المرقص ما سكن من الأعضاء ، مثلما يحرك ساكن الأوتار ، فقال : (الكامل)

مَعَ مُسْمِعٍ حَلَفَتْ لنا أوتارُهُ أنْ لا تُنَافِرَ رَنَّةَ المِزْمَارِ
فَطِنٌ يُحَرِّكُ كُلَّ عُضْوٍ ساكِنٍ تحريكَه لِسَواكِنِ الأوْتَارِ[٥٥]

أما السقاة ، فقد أعجب الشعراء التغزل بهم ، سواءٌ أكان ذلك الساقي أنثى ، أم ذكراً ، فها هو أبو الرقعمق يتغزَّل بساقية هيفاء ؛ أعجبه قوامها الرشيق حتى بدا كقضيب الخيزران ، فقال : (الكامل)

وَيَوْمُكَ إذْ تَطُوفُ بِهِ فَتَاةٌ عَلَى الخَدَّيْنِ مِنْهُ وَرْدَتَانِ
مُهَفْهَفَةُ القَوامِ إذا تَثَنَّتْ تَثَنَّتْ كَالقَضِيبِ الخَيْزَرَانِ[٥٦]

ويحب ابن وكيع التنيسي من الساقي أن يكون شادناً غريراً ، في عيونه سقام ، له من الحسن جيوش لا يطيق الإنسان الصبر أمامه ، فقال : (مخلَّع البسيط)

وَعِنْدَنا شَادِنٌ غَرِيرُ فِي لَحْظِ أجْفَانِهِ سِقَامُ
لِلْحُسْنِ قدّامُهُ جُيُوشٌ للصَّبْرِ قدّامُها انْهِزامُ[٥٧]

وتبعاً لذلك شاع في هذه الحقبة ما عُرِفَ بـ (أدب الديارات)[٥٨] ، ويقصد به ذلك الشعر الذي كان يتردَّد حول مجالس الشراب في الأديرة التي عرفتها مصر إبّان هذه الحقبة ، وقد قصدها عددٌ من الشعراء طلباً للمتعة ، واللذَّة ؛ من أمثال : تميم بن المعز لدين الله، وابن وكيع التنيسي، وأبي الرقعمق الأنطاكي، وابن الزنبقي (ت بعد ٣٨٤هـ)، وغيرهم ، فهذا تميم بن المعز لدين الله ولعٌ بدير القصير[٥٩] ، ويكثر من ذكره في شعره ، فمن ذلك قوله : (الوافر)

إلى دَيْرِ القَصِيرِ صَبَا فُؤَادِي وَقَدْ يَصْبُو الخَطِيرُ إلى الخَطِيرِ
مَحَلٌّ جَلَّ أنْ تُعْزَى إليْهِ مَحلاّتُ الخَوَرْنَقِ[٦٠] والسَّدِيرِ[٦١][٦٢]

وذكر أبو هريرة بن أبي العصام ما كان يفعل في هذا الدير من قصفٍ ، ولهوٍ ، ومجونٍ ، فقال : (المنسرح)

كَمْ لي بِدَيْرِ القَصيرِ مِنْ قَصْفٍ مَعَ كلِّ ذي نشْوَةٍ وذي ظُرْفِ
لَهَوْتُ فيهِ بشادنٍ غَنِجٍ تقصُرُ عنْهُ بَدَائعُ الوَصْفِ[٦٣]

وعرفت مصر – فضلاً عن دير القصير – أديرةً أخرى ؛ قصدها الشعراء ، ونظموا فيها أشعارهم ، ووصفوا ما وقعت عليه أعينهم من مناظر جميلة ، ومشاهد خلاّبة ، منها دير ميرحنّا[٦٤] ، ودير نَهْيا[٦٥] ، ودير طمْويْه[٦٦] ، ولم يكن انصراف الشعراء إلى هذه الأديرة ، وولعهم بها عبثاً ؛ إذ كانت تهيئ لهم إلى جانب ما تتماز به من طبيعة غنّاء ، وبساتين يانعة ، وغلمانٍ مرد ؛ فرصةً للخروج من مشاكلهم ، وتساعدهم على التنفيس عن همومهم ، وآلامهم ، فهذا تميم بن المعز لدين الله يلحُّ في تعلقه بدير القصير ، ويتخذ منه مكاناً للتصابي ، وقضاء أوقات فراغه ، فزائروه تتجدد نفوسهم ، وتبتعد الآلام عن قلوبهم ، فقال : (الطويل)

أرَى اللَّيْلَ في ديْرِ القُصَيْرِ كأنَّما تُطَالِعُنا مِنْ ساحَتَيْهِ شُمُوسُ
يَلذُّ التَّصَابي في ذُرَاهُ كأنَّمَا تُجَدِّدُ للزوَّارِ فيهِ نُفُوسُ
فَمَنْ كانَ مَحْبُوساً على حُبِّ لذَّةٍ فإنّي على ديْرِ القَصِيرِ حبيسُ[٦٧]

والحدائق الجميلة التي تحيط بهذه الأديرة ؛ جعلت الشعراء لا يرون في الأرض بقعةً أجمل منها ، حتى كأنَّ الجنَّةَ قد تجلَّت فيها ، فقال ابن الزنبقي مصوراً هذا المعنى : (الرجز)

ديْرُ القَصيرِ الفَرْدُ في صَفَائِهِ يا مَنْ رَأى الجَنَّةَ في رَأْسِ جَبَلْ[٦٨]

ووصف أبو الرقعمق الأنطاكي ذلك الدير ، وتلك المناظر التي تحيط به ، حتى بدا كأنه جنَّة الله في أرضه ، فقال : (البسيط)

سُقْياً لِلَيْلَتِنَا بالدَّيْرِ بَيْنَ رُبَاً باتَتْ تَجُودُ عَلَيْهَا سُحْبُ نَيْسَانِ
والطَّلُّ مُنْحَدِرٌ والرَّوْضُ مُبْتَسِمُ عَنْ أصْفَرٍ فاقِعٍ أوْ أحْمَرٍ قَانِ
والنَّرْجِسُ الغَضُّ مُنْهَلٌّ مَدَامِعُهُ كأنَّ أجْفَانَهُ أجْفَانُ وَسْنَانِ[٦٩]

ومن هنا نجد الشعراء يحنّون إلى تلك البقاع ، ويتأسفون على فراقها ، فها هو الرقيق القيرواني (ت ٤٢٥ هـ) يحنُّ إلى تلك المواضع التي تمتَّع بها في أجواء تلك الأديرة ، وما نعم فيها من ليالٍ جميلة ، ومناظر رائعة ، فقال بعد أن فارقها قافلاً إلى وطنه في قصيدة أولها : (الطويل)

هَلِ الرِّيحُ إن سَارَتْ مُشَرِّقَةً تَسْرِي تُؤَدِّي تَحِيّاتِي إلى ساكني مِصْرِ

يقول فيها :

وَمَا أنْسَ مِنْ شَيءٍ خَلا العَهْدُ دونَهُ فَلَيْسَ بخالٍ من ضَميري وَلا فِكْرِي
ليالٍ أنِسْنَاها عَلَى غُرَّةِ الصّبا فطابَتْ لنا إذ وافَقَتْ غُرَّةَ الدَّهْرِ

.....

فَكَمْ لِيَ بالأهْرامِ أو دَيْرِ نُهْيَـةٍ مَصايدَ غِزلان المَكانسِ والقَفْـرِ

.....

وفي سَرَدوسٍ مُسْتَرادٌ ومَلْعَـبٌ إلى ديْرِ مَرْحنّا إلى ساحِلِ البَحْـرِ
وكمْ بَيْنَ بستانِ الأميرِ وقَصْرِهِ إلى البُرْكةِ الزَّهْراءَ مِنْ زَهَرٍ نَضْرِ
تَراهـا كَمِرْآةٍ بَدَتْ فـي رَفارفٍ من السُّنْدُسِ المُوشيِّ يُنْشَرُ للتَّجْرِ
وَكَمْ بِتُّ في ديْرِ القَصِيرِ مُواصِلاً نَهاري بليْلِي لا أفيقُ من السُّكْرِ(٧٠)

ويصف فيها ما كان من أمر السقاة ، والندمان ، فقال : (الطويل)

تُباكِرُني بالرَّاحِ بِكْرٌ غريـرَةٌ إذا هَتَفَ النَّاقوسُ في غرَّةِ الفَجْـرِ
مَسيحيَّةٌ خُوطيَّـةٌ كُلَّما انْثَنَتْ تَشَكَّتْ أذى الزنّار من دِقَّةِ الخِصْرِ(٧١)

وهكذا صارت هذه الأديرة « مقصداً ، وهدفاً لطلاب اللذة ، والمتعة ، وأصحاب اللهو والمجون ، وإذا بالشعراء ، والأدباء ، وغيرهم ؛ من مغرمي موائد الشرب ومجالسه يقطعون المسافات للوصول إلى هذا الدير ، أو ذاك ، لما شُهِر به من نبيذ حسن ، وخمرة جيدة ، وطيبِ معشرِ سكّانه ، والقيّمين عليه ، وإذا بهذه الديارات تدخل الأدب العربي عن طريق الشعر خاصَّة بأبيات ، ومقاطع ، وحتى بقصائد كاملة ؛ تمجّدها ، ويذكر الشعراء فيها أيامهم الجميلة ، ولياليهم السعيدة الحلوة التي قضوها فيها ، ثمَّ يتمنوْنَ العودة إليها ... »(٧٢) ، وقد عدَّ الدكتور يوسف خليف شعر الديارات لوحة من لوحات مدرسة الأدب المكشوف(٧٣) ؛ صوَّر فيها الشعراء الجانب اللاهي من حياتهم ، فصوَّروا مجالس الشرب ، وتغزَّلوا بالفتيان ، والفتيات ؛ الذين كانوا يقومون على أمر الأديرة ، ويقدمون الخمر لروّادها .

الخاتمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين .

لقد وصف الشعراء الخمرة، وألوانها، وسقاتها، وما يتصل بها، وهم في كّل ذلك يرسمون صورة للمجتمع المصري المنفتح ، الذي أحبَّ اللهو ، والتفكّه ، والاستمتاع بملذّات الحياة ، وقد يكون نظم الشعراء في الخمرة حقيقة ؛ مثلما وجدناه عند الشعراء الماجنين، أو على سبيل محاكاة الشعر القديم، ولاسيما في مقدّمات القصائد . والأمثلة التي عرضها هذا البحث تؤكّد ذلك ، إذ انَّ كثيراً من الشعراء عاش حياةً لاهية عابثة ؛ حاول أن يصور جانباً منها في شعره ، فجاء هذا الشعر تعبيراً حيّاً لما عاشه بعض أفراد المجتمع المصري خلال العصر الفاطمي ؛ مما يعكس روح التسامح لدى الخلفاء الفاطميين ، والحرية التي تمتَّع بها أبناء المجتمع ، فضلاً عن أننا نجد من آثر التمسّك بالأنموذج التقليدي الذي راح يحاكيه ، وينسج على منواله .

هوامش البحث :

(١) تطور الخمريات في الشعر العربي : ٢٤٥ .

(٢) ينظر : م . ن : ٣١ – ٤٨ ، وقد ورد ذكر الخمرة ، وما يتصل بها عند شعراء عصر ما قبل الإسلام ، ومنهم : امرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، ولبيد بن ربيعة ، ويعد الأعشى من أبرز الشعراء الذين تناولوا الخمرة ، وأكثرهم إطالة في وصفها ؛ إذ ورد ذكر الخمرة عنده في أكثر من سبع عشرة قصيدة من القصائد التي اشتمل عليها ديوانه . ينظر : ديوان امرئ القيس : ٧١ ، ١١١ ، ١١٥ ، وديوان طرفة بن العبد : ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٧ ، وشرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري : ٧ ، ٢١ ، ٨٥ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، وديوان الأعشى : ٣٧٩ (فهرس الفنون الشعرية) .

(٣) الأدب في الحيرة قبل الإسلام : ٦٩ .

(٤) ينظر : الأغاني : ١٩ / ٣ .

(٥) ينظر : الأخطل الكبير حياته وشخصيته وقيمته الفنية : ١١٤ – ١٣٠ .

(٦) ينظر : الأغاني : ٧ / ٢٦ .

(٧) ينظر : تطور الخمريات في الشعر العربي : ٢٤٥ .

(٨) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري : ٤٧٧ .

(٩) ينظر : الأدب العربي في العصر العباسي : ٦٢ .

(١٠) تميم الفاطمي ؛ شاعر الحب والعاطفة والجمال : ١٥٥ – ١٥٦ .

(١١) ينظر : التشيع المصري الفاطمي : ٤ / ٢١٢ .

(١٢) يتيمة الدهر : ١ / ٤٧٠ .

(١٣) م . ن : ١ / ٤٩٩ .

(١٤) الوزير المغربي ؛ دراسة في سيرته وأدبه مع ما تبقى من آثاره : ١٥٩ .

(١٥) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : ٣٢ .

(١٦) ديوان الحسن بن علي الضبي : ٤٤ .

(١٧) م . ن : ٧٠ .

(١٨) أخبار مصر في سنتين : ١٥١ .

(١٩) عَدَقَ : وجَّه الرأي إلى ما لا يستيقنه ، وعدق الرجل : أدخل يده في نواحي البئر والحوض كأنه يطلب شيئاً . (ينظر : لسان العرب : عَدَقَ – ١٠ / ٢٣٨) .

(٢٠) ديوان الحسن بن علي الضبي : ٦٨ .

(٢١) أنموذج الزمان في شعراء القيروان : ٥١ .

(٢٢) ينظر : ديوان الحسن بن علي الضبي : ٣٣ – ٣٤ .

(٢٣) ينظر : م . ن : ٣٤ .

(٢٤) ينظر : م . ن : ٣٥ – ٣٦ .

(٢٥) م . ن : ٣٦ – ٣٨ .

(٢٦) الصبوح : الشرب من أول الصبح إلى الغداة ، هو ضد الغبوق . (ينظر : لسان العرب : صَبح – ٢ / ٥٠٢) .

(٢٧) الغبوق : شرب آخر النهار (ينظر : لسان العرب : غبق – ١٠ / ٢٨١) .

(٢٨) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : ١٠٧ .

(٢٩) ديوان الحسن بن علي الضبي : ١١٠ .

(٣٠) خلس : الأخذ في مخاتلة ، واختلس الشيء : أخذه سلباً (ينظر : لسان العرب : خلس – ٦ / ٦٥) .

(٣١) ديوان الحسن بن علي الضبي : ١٢٧ – ١٢٨ .

(٣٢) ديوان الشريف العقيلي : ١٠٣ .

(٣٣) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : ٦٢ .

(٣٤) ديوان الحسن بن علي الضبي : ٦٨ .

(٣٥) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : ٣٢ .

(٣٦) ديوان الشريف العقيلي : ١٠٣ .

(٣٧) ديوان الحسن بن علي الضبي : ٨٢ ، ١٣٤ .

(٣٨) م . ن : ٨١ .

(٣٩) م . ن : ٩٦ .

(٤٠) أنموذج الزمان في شعراء القيروان : ٥٢ ، وسرور النفس بمدارك الحواس الخمس : ٣٨٥ (أبيات إبراهيم بن غانم بن عبدون) .

(٤١) ينظر : ديوان الحسن بن علي الضبي : ٧٧ .

(٤٢) ينظر : م . ن : ١٢٨ .

(٤٣) ينظر : م . ن : ١٣٤ .

(٤٤) يتيمة الدهر : ١ / ٤٨٠ (أبيات السهواجي) .

(٤٥) أنموذج الزمان في شعراء القيروان : ٥٢ ، وسرور النفس بمدارك الحواس الخمس : ٣٨٦ (أبيات إبراهيم بن غانم بن عبدون) .

(٤٦) ديوان الحسن بن علي الضبي : ١١٠ .

(٤٧) م . ن : ٨٤ .

(٤٨) ديوان الشريف العقيلي : ٤٩ .

(٤٩) يتيمة الدهر : ١ / ٤٠٠ .

(٥٠) يتيمة الدهر : ١ / ٣٩٣ .

(٥١) ديوان الحسن بن علي الضبي : ٨٠ .

(٥٢) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : ٢٠٠ .

(٥٣) ديوان الحسن بن علي الضبي : ٨١ .

(٥٤) يتيمة الدهر : ١ / ٤٨٠ – ٤٨١ .

(٥٥) ديوان الحسن بن علي الضبي : ٦٨ .

(٥٦) يتيمة الدهر : ١ / ٣٩٣ .

(٥٧) ديوان الحسن بن علي الضبي : ٨٤ .

(٥٨) ينظر : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري : ٤٩٧ .

(٥٩) دير القصير : من أديرة مصر ، يقع في أعلى جبل المقطم ، وهو « دير حسن البناء ، محكم الصنعة ، نزه البقعة ، فيه رهبان مقيمون فيه » . الديارات : ٢٨٤ .

(٦٠) الخورنق : قصر بظهر الحيرة بناه سنمار للنعمان بن المنذر ، وله في ذلك قصة ، وكان من أحسن البنيان جمالاً ، وحسناً ، وعلواً . ينظر : معجم البلدان : ٢ / ٤٠١ – ٤٠٣ .

(٦١) السدير : موضع بالكوفة قريب من قصر الخورنق يكثر فيه النخل والأشجار . ينظر : معجم البلدان : ٣ / ٢٠١ .

(٦٢) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : ٢٤١ ، وينظر : ١٩٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٣٩٧ على سبيل المثال .

(٦٣) يتيمة الدهر : ١ / ٤٨٧ ، وينظر : الديارات : ٢٨٥ ، والمواعظ والاعتبار : ٤ / ٤٢٤ .

(٦٤) يقع هذا الدير على شاطئ بركة الحبش قريباً من نهر النيل ، وتقع على جانبه بساتين أنشأ بعضاً منها الأمير تميم بن المعز لدين الله ، وهو من مواضع اللهو ، والطرب عند المصريين ، ولا يكاد يخلو من المتطرحين ، والمتنزهين . ينظر : الديارات : ٢٨٩ – ٢٩٠ .

(٦٥) يقع هذا الدير بالجيزة ، وهو من أحسن الديارات ، وأطيبها ، ويحيط به الماء من جهاته جميعاً ، وهو من المتنزهات الجميلة ، والبقاع المشتهرة ، وله خليج يجتمع إليه سائر الطيور . ينظر : الديارات : ٢٩٤ .

(٦٦) يقع هذا الدير في الغرب قرب حلوان ، وتجتمع حوله البساتين العامرة بأصناف الشجر والثمر ، وله في النيل منظر حسن . ينظر : الديارات : ٢٩٨ .

(٦٧) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : ٢٤٨ .

(٦٨) الديارات : ٢٨٧ ، وينظر : يتيمة الدهر : ١ / ٥١٠ .

(٦٩) يتيمة الدهر : ١ / ٤٠٧ – ٤٠٨ .

(٧٠) معجم الأدباء : ١ / ١٠١ .

(٧١) م . ن : ١ / ١٠١ .

(٧٢) الأندية الأدبية في العصر العباسي : ١٧٨ .

(٧٣) ينظر : حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة : ٦٣٠ .

المصادر والمراجع :

١. اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، د. محمد مصطفى هدّارة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

٢. أخبار مصر في سنتين ، عز الملك الأمير المختار محمد بن عبيد الله بن أحمد المسبّحي (ت ٤٢٠هـ) ، تحقيق : وليم .ج . ميلورد ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

٣. الأخطل الكبير ؛ حياته وشخصيته وقيمته الفنية ، د. فخر الدين قباوة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٦م .

٤. أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ)، تحقيق : محمد العروسي المطوي وبشير البكّوش ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان ، ١٩٩١م .

٥. الأدب العربي في العصر العباسي ، د. ناظم رشيد ، دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، العراق ، ١٩٨٩م .

٦. الأدب في الحيرة قبل الإسلام ، د. أحمد حسين عبد العيثاوي ، ط١ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ٢٠٠٨ م .

٧. الأغاني ، أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ) ، تحقيق : سمير جابر ، ط٢ ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، د . ت .

٨. الأندية الأدبيَّة في العصر العباسي ، علي محمد هاشم ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٧٨ م .

٩. تطوّر الخمريات في الشعر العربي ، د. جميل سعيد ، ط١ ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، ١٩٤٥م .

١٠. التشيّع المصري الفاطمي ، د. حسن محمد صالح ، ط١ ، دار المحجة البيضاء ، بيروت، لبنان ،٢٠٠٧م .

١١.تميم الفاطمي ؛ ابن المعز لدين الله الفاطمي شاعر الحب والعاطفة والجمال ، د. عارف تامر ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، ١٩٨٢م .
١٢.حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة ، د. يوسف خليف ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨م .
١٣. الديارات ، أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالشابُشتي (ت٣٨٨هـ) ، تحقيق : كوركيس عواد ، ط٢ ، منشورات مكتبة المثنى ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٦م .
١٤.ديوان الأعشى الكبير ؛ ميمون بن قيس ، شرح وتعليق : د. محمد محمد حسين ، مكتبة الآداب ، المطبعة النموذجية ، مصر ، د . ت .
١٥.ديوان امرئ القيس ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩م .
١٦.ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي (ت٣٧٤هـ) ، تحقيق : محمد حسن الأعظمي ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٠ م .
١٧.ديوان الحسن بن علي الضبي الشهير بابن وكيع التنيسي (ت٣٩٣هـ) ، تحقيق : د. هلال ناجي ، ط١ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩١ م .
١٨.ديوان الشريف العقيلي (ت حوالي ٤٥٠هـ)، تحقيق : د. زكي المحاسني ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، د . ت .
١٩.ديوان طرفة بن العبد ، اعتنى به : عبد الرحمن المصطاوي ، ط١ ، دار المعرفة، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٣م .
٢٠.سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ، أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي (ت ٦٥١ هـ) ، تهذيب : جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت ٧١١هـ) ، تحقيق : د. إحسان عباس ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠ م .
٢١.شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، تحقيق : د. إحسان عباس ، سلسلة التراث العربي التي تصدرها وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت ، الكويت ، ١٩٦٢م .
٢٢.لسان العرب ، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ، ط١، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٥٥م .
٢٣.المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ؛ المعروف بالخطط المقريزية ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي ، وضع هوامشه : خليل المنصور ، ط١ ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،١٩٩٨ م .
٢٤.الوزير المغربي أبو القاسم الحسين بن علي العالم الشاعر الناثر الثائر (٣٧٠-٤١٨هـ) – دراسة في سيرته وأدبه مع ما تبقى من آثاره ، د. إحسان عباس ، ط١ ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمّان ، الأردن ، ١٩٨٨م .
٢٥.يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري ، شرح وتحقيق : د. مفيد محمد قميحة ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣م .